قراءات في التاريخ الإسلامي

عند الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره

المدرس المساعد
حسن طاهر ملحم
الكلية الإسلامية الجامعة ـ النجف الأشرف

قراءات في التاريخ الإسلامي عند الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره

المدرس المساعد
حسن طاهر ملحم
الكلية الإسلامية الجامعة ـ النجف الأشرف

المقدمة:

في العالم ككل تكون أي امة مدينة إلى علمائها ومفكريها لما قدموه من إبداع علمي وفكري ساهم في تطوير الحضارة الإنسانية علميا وفكريا. ومن هذا البعد فنحن مدينون - بدون شك على المستوى الفكري والنظري للمفكر الإسلامي محمد باقر الصدر قدس سره.

فقد كان المُنظر الرائد بلا منازع في عصرنا واستطاع من خلال كتاباته وأفكاره التي تميزت بالجدية والإبداع من جهة، والعمق والشمول من جهة أخرى أن يمهد السبيل للأمة ويشق لها الطريق نحو نهضة فكرية إسلامية شاملة وسط ركام هائل من التيارات الفكرية المستوردة التي تنافست في الهيمنة على مصادر القرار الفكري والثقافي في مجتمعنا الإسلامي.

لقد استطاع السيد الشهيد الصدر- بكل كفاءة - ان ينازع بفكره عمالقة الفكر والحضارة ونوابغها. واثبت من خلال ما قدمه فاعلية الفكر الإسلامي وقدرته على حل مشاكل المجتمع الإنساني المعاصر.

وكان إبداعه الفكري مدرسة لم تنحصر علومها في علم معين. بل طالت مجالات الفكر الإسلامي في مختلف اختصاصاته كالاقتصاد والفلسفة والفقه والمنطق والتفسير والتاريخ. واحدث في كل هذه الفروع قفزة نوعية وثورة فكرية نقلت البحث العلمي إلى مرحلة جديدة تميزت عما سواها في المنهج

والمضمون ويحاول هذا البحث المتواضع ان يلقي ضوءاً على فكر ومنهج السيد الصدر التاريخي.

توطئة:

احتل السيد الشهيد محمد باقر الصدر موقعا له في صدارة الفقه الشيعي بجدارة وفي سنين مبكرة من عمره الشريف[١]. وعُد موسوعة علمية في العطاء العلمي فقد أبدع في المجالات العلمية المختلفة.ونوَع السيد الشهيد ثقافته ودخل ميادين المعرفة المختلفة مع ما قدمه في الفقه والأصول منحىً جديداً يفهمه الآخر وجعل الوعي أداةً للتغيير وليس أداةً من أدوات الابتزاز أو التفوق على الآخر. فهو عندما رأى إن الناس في مرحلة الحاجة الماسة إلى - أن يكتب (اقتصادنا، وفلسفتنا) بادر إلى كتابتها ثم كتب (الأسس المنطقية للاستقراء) بنظريات جديدة ذات أفق واسع،عالج فيها قواعد وأصول الفكر الإسلامي. من هذه القراءات وغيرها ابتدأ الصدر منذ صباه يهتم بعالم التاريخ الذي سجل فيه روائع أفكاره وأرائه التي توصل إليها بدون أن يستعمل الشرطية الافتراضية المشهورة (إن قلتَ..قلتُ) وحل مكانها لغة الطرح المؤَوِل الذي يعبر عن الفكرة والمضمون بأعلى شفافية[٢].

إذ ارتكز المنهج العلمي التاريخي لدى السيد الصدر على أسس رصينة نابعة عن معرفة تامة بالتاريخ الإسلامي، ومراحله وعصوره، وما يتفرع من التاريخ من اهداف سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية،وما يتصل بالعقائد والافكار ومن خلالها استطاع السيد الصدر تحويل التاريخ الى علم يستند على التحليل والاستنتاج[٣].

فعلم التاريخ - الذي ولع فيه الشهيد الصدر منذ شرح شبابه - يشكل مرجعاً واساساً في رؤيته للاشياء، ومنهج تفكيره في البحث العلمي بأعتبار ان

التاريخ يعطي للباحث ما تمثل في كتاباته،وقراءاته لموضوعات تاريخية مهمة في الحياة الإسلامية، التي كان لها انعكاسات اجتماعية وثقافية وسياسية، وتربوية على صعيد الفرد، والامة، والدولة[٤][٥].

المنهج التاريخي للشهيد الصدر قدس سره في كتابه فدك والتاريخ:

يقول لولينجوود: إن فلسفة التاريخ لا تهتم بأي من الماضي في ذاته، أو بتفكير المؤرخ حول الماضي بذاته، وإنما للأمرين معا. في علاقاتهما المتبادلة، فالماضي الذي يقوم المؤرخ بدراسته هو ليس بالماضي الميت، ولكنه ماض ما يزال يعيش في الحاضر[٥].

وبناءً على هذا عرفت فلسفة التاريخ بأنها: التعليق على الحدث التاريخي، وبيان أسبابه، وذكر فروض مختلفة حوله مع محاولة الإجابة عن هذه الفروض[٦].

وقد طبقَ السيد الشهيد قدس سره هذا المنهج مع قضية فدك ومسألة الخصومة التاريخية بين الخليفة الأول ابو بكر و الزهراء عليها السلام بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وحاكم القضية بتحقيق تاريخي مَثَلَ فيه محاكمةً للتاريخ من خلال الطرح العلمي[٧] الذي ترفع به عن أساليب الاستفزاز المباشر وغير المباشر. فلم يستعمل في ردوده المحاججة التي تقوم على المباغتة أو المفاجئة وإنما على الوضوح والإبانة والصراحة، وقد أشعر القارئ منذ البداية انه هادف وقاصد وليس لاعبا أو مباريا، ولم يشعر القارئ بنوع من الضوضائية في الطرح و لم يشعره بالاستدراج، وإنما يشعره بالخلاف العلمي.

وراعى السيد الصدر قدس سره منهج وشروط البحث التاريخي، إذ اعتبر إن التجرد عن المرتكزات، والإناة في الحكم، والحرية في التفكير شروطا للحياة الفكرية المنتجة وللبراعة الفنية في كل دراسة عقلية مهما يكن نوعها، ومهما

يكن موضوعها. فهي أهم الشروط الأساسية لإقامة البناء التاريخي المحكم لقضايا أسلافنا الذي ترتسم فيه خيوط حياتهم التي صارت ملكا للتاريخ.وليصور عناصر شخصياتهم التي عرفوها في أنفسهم. أو عرفها الناس يومئذ عنهم(٨).

وبعد هذا البيان الموضوعي لدراسة الحدث التاريخي يعقب السيد الصدر موضحاً الهدف والغاية التربوية والتوعوية من التعمق في دراسة التاريخ فيقول:

((وأما إذا جئنا للتاريخ لا لنسجل واقع الأمر خير كان أو شرا. ولا لحبس دراستنا في حدود من مناهج البحث العلمي الخالص، لنجمع الاحتمالات و التقديرات التي يجوز افتراضها ليسقط منها على محك البحث ما يسقط و يبقى ما يليق بالتقدير والملاحظة بل لنستلهم عواطفنا وموروثاتنا ونستمد من وحيها الأخاذ تاريخ أجيالنا السابقة(٩).

وينطلق في حسه التاريخي في رحاب فكره الخلاق ليعالج بأروع ما يمكن الحدث أينما وجد،وأيا كان صانعه،بأن يكون الإنسان حرا في تفكيره ومؤرخا لدنيا الناس، لا روائيا يستوحي من دنيا ذهنه ما يحلو له تبع عاطفته وهواه ويفرضها على الناس فرضا،ولذلك فهو ينبه دائماً الى(مسؤولية التاريخ)، ومسؤولية الباحث فيه(١٠).

لم يدع - السيد الصدر في كل نتاجه الفكري - والتاريخي حصراً- انه استوعب التاريخ وجمد حركة الفكر، بل بالعكس آمنَ بالطاقة الإنسانية والقدرة على الإبداع المستمر. ولذا لم يجد القارئ لنصوصه ادعاءات تجميع التاريخ وتكريسه إلى الأبد حيث غابت في أطروحاته هذه العبارات (... هذا القول الفصل) و(...وهذا لم يسبقنا إليه احد)(١١).

وعندما يحاجج المؤرخين من الأولين و المعاصرين و يذكر أقوالهم و أرائهم كان يتوخى الدقة في عملية النقل فنراه قد تنزه في كل بيانه وخطابه عن أي عملية بتر أو تشويه أو انتقاء، وحرص على ان تكون الإحالة إلى المصادر إلام أوالى ينابيع المصادر بكل أمانة وشرف. فعندما وقف مع العقاد وكتابه (فاطمة الزهراء والفاطميون) عرض رأي العقاد كاملا غير مبتورا وقدم اعتذاره للقارئ للإطالة غير المقصودة والتي كان يروم منها العرض لإكمال بيان الحجة التي يدافع عنها[١٢]. وقد تميز السيد الصدر بعدم الإسلام لما في المصادر المعاصرة من تبريرات وتسويغات لبعض القضايا الخلافية، لأنه نبّه كما ذكرنا إلى مسؤولية المؤرخ من ناحية والى ضرورة محاكمة النصوص بصراحة ووضوح من ناحية أخرى. ومثال ذلك عندما نقل النتيجة التي انتهى إليها العقاد عندما كتب عن قضية فدك قائلاً: (والحديث في مسألة فدك هو كذلك من الأحاديث التي لا تنتهي إلى مقطع للقول متفق عليه، غير إن الصدق فيه: لا مراء ان الزهراء اجل من أن تطلب ما ليس لها بحق وان الصديق اجل من ان يسلبها حقها الذي تقوم به البينة عليه...)[١٣].

فنبّه السيد الصدر الى هذه (الحيرة العلمية) التي وقع فيها العقاد، مدفوعاً الى ذلك بالمتبنى الفكري الذي لا يجيز الطعن في سلوك الشخصيات التي كان لها حظ من القدسية عند الناس، وبالتالي اخطر العقاد الى ان يعطي البحث في مسألة فدك لوناً من ألوان النزاع التي ليس لها قرار[١٤].

فلا يمكن ان يكون كلا المتنازعين على صواب، ولابد من الفصل في القضايا التاريخية او الترجيح بناءً على الحقائق والنصوص، فإن اعوزتنا فعلى الاستقراء، ولذلك نجد الصدر عاد الى قراءة سلوك الخليفة منذ عصر الرسالة ليفهم طبيعة العلاقة بينه وبين زوج الزهراء عليها السلام (الامام علي عليه السلام)، فلاحَقَ النصوص التي كانت توضح تميز الامام علي مقابل شخصية ابي بكر في عهد

الرسول ومثالها: اعفاء النبي ﷺ لأبي بكر من قراءة سورة براءة، وتكليف علي بذلك[١٥][١٦]، ورغبة ابي بكر في خلافة رسول الله ﷺ التي جعلته يرى في مطالبة الزهراء بالميراث والنحلة بانها (حرب سياسية)، وتظلم لقرينها (عليّ) الذي أُبعد عن الخلافة، فوصف الامام علي بأنه (ثعالة)، وانه (مرب لكل فتنة)، وانه (كأم طحال) في احتجاجه على الزهراء عندما منعها فدك، ولم يذكر الميراث في قليل او كثير[١٧].

وبعد ان عرض السيد الصدر حجج الخليفة ابي بكر بمنع الزهراء ميراثها من رسول الله ﷺ على القران والسنة وجدَ إن الخليفة قد تعمد الخطأ لأهداف شخصية وإستدل على ذلك استدلالاً منطقياً عندما قال: (ان حكم الخليفة كان سياسيا مؤقتا. وان موقفه كان ضرورة من ضروريات الحكم في تلك الساعة الحرجة وإلا فلم أهمل عمر بن الخطاب رواية الخليفة وطرحها جانبا وسلم فدك الى عباس وعلي. وبموقفه هذا يدل على انه سلم فدك إليهما على أساس ميراث رسول الله لا على أساس وجه التوكيل[١٨].

وإذا عرفنا ان الزهراء نازعت امر الميراث. بعد استيلاء الحزب الحاكم عليه، لآن الناس لم يعتادوا ان يستأذنوا الخليفة في قبض مواريثهم او في تسليم المواريث الى اهلها فلم تكن فاطمة في حاجة الى مراجعة الخليفة، ولم تكن لتأخذ رأيه وهو الظالم المنتزي على الحكم في رأيها.فالمطالبة في الميراث لابد انها كانت صدى لما قام به الخليفة من تأميمه للتركة على - ما نقول اليوم- والاستيلاء عليها[١٩].بحجة ان النبي ﷺ لا تورث أملاكه وبزعمه انه سمع رسول الله ﷺ يقول: (لا نورث، ما تركناه صدقة...)[٢٠].

ومن المؤاخذات التي رصدها السيد الصدر على الخليفة في قوله هذا، تلك المؤاخذة الذكية التي اشار فيها، الى ان من الاسراف في الاحتمال أن نُجوّز إسار رسار رسول الله ﷺ الى الخليفة بحكم تركته واخفاءه عن بضعته وسائر

ورثته[٢١].

من الجدير بالذكر ان الفخر الرازي قد فطن الى هذا الامر هو الاخر في تفسيره الكبير بعد عرضه للمنازعة في ضوء الظروف المحيطة قائلا: ان المحتاج الى معرفة المسألة ما كان الا فاطمة وعلي والعباس وهؤلاء كانوا من اكابر الزهاد والعلى في الدين، واما ابي بكر فأنه ما كان محتاجا الى معرفة هذه المسألة لانه ما كان يخطر بباله ان يورث من الرسول، فكيف يليق بالرسول ان يبلغ هذه المسألة الى من لا حاجة له اليها ولا يبلغها الى من له الى معرفتها اشد حاجة[٢٢].

المنهج التاريخي للشهيد الصدر في كتابه (أهل البيت تعدد ادوار ووحدة هدف):

لم يكن الشهيد الصدر من هواة التأليف والتصنيف لذلك لم يترك من أكثر الحقول التي طرق أبوابها سوى مصنف أو أكثر وعدة بحوث متناثرة ومحاضرات في مناسبات مختلفة ومن ذلك حقل التاريخ الذي ترك فيه كتاب (فدك في التاريخ) الذي أسلفنا فيه القول و بحوث ومحاضرات تاريخية قدر لها أن تكون مصادر للبحث التاريخي[٢٣].

وكتابه (أهل البيت تنوع ادوار ووحدة هدف) عبارة عن سلسلة محاضرات القاها السيد الشهيد في عدة مناسبات منذ سنة ١٩٦٦م، وجمعت وحققت من قبل طلبته،والقائمين على حفظ تراثه القيّم[٢٤] شرح فيها المبادرات الايجابية لائمة أهل البيت عليهم السلام في الحفاظ على الإسلام في العصور المختلفة للأنظمة الجائرة التي واكبوها.

كان القصد منها إظهار الجانب التربوي والإعداد الروحي عند الأئمة الاثني عشر عليهم السلام في الظرف السياسي القاسي الذي عاشوا فيه.

وبنظرة سريعة إلى ما دونه الشهيد في كتابه (أهل البيت تنوع ادوار ووحدة هدف) نرى:

أ - طرح السيد الشهيد منهجية غاية في الدقة في تجنب المجابهة مع إخوتنا السنة وعدم إثارة النزاع (الشيعي ـ السني) التقليدي. بل كان منهجه طرح الصورة التاريخية التي تضعف من طابع المنافسة (الشيعية ـ السنية) في بعض المواقف التاريخية الأساسية.

ب - اتبع السيد الشهيد في كتابه (أهل البيت تنوع ادوار ووحدة هدف) منهجية كشف فيها منهج أئمة أهل البيت عليهم السلام العميق في الحفاظ على وحدة الامة وخلص في تفكيره إلى إن بداية الانحراف في التاريخ الإسلامي جاءت من أشخاص آخرين قاموا مقام خلافة النبي صلى الله عليه وآله المتمثلة بشخص الإمام علي عليه السلام.

ج - سار السيد الشهيد على منهج جديد في كتابه (أهل البيت....) لا يقتصر على دراسة حياة كل إمام فحسب وإنما أيضاً يدرس تاريخه على أساس النظرة الكلية بدلا عن النظرة التجزيئية. أي النظر إلى الأئمة ككل مترابط ثم يدرس هذا الكل، ليكشف ملامحه العامة وأهدافه المشتركة[٢٥].

ولا ينوي السيد الشهيد استبدال الاتجاه المنهجي التجزيئي بالاتجاه المنهجي التوحيدي في دراسة حياة الائمة استبدالا كليا او يلغي دوره في دراسة وتحليل الجوانب التفعيلية في حياة الائمة، اذ ان هذة الدراسة التفصيلية ضرورية في الاتجاه التوحيدي... فدعوته إلى الاتجاه التوحيدي في دراسة التاريخ كدعوته إلى الاتجاه الموضوعي في تفسير القران الكريم[٢٦].

فالسيد الصدر يرفض الاتجاه التجزيئي وحده لان دراسة احوال الائمة عليهم السلام

على هذا المستوى تجعلنا نواجه اختلافاً في سلوكهم وتناقضاً من الناحية الشكلية بين الادوار التي مارسوها فالامام الحسن قد هادن معاوية.بينما حارب الحسين يزيد حتى قُتل، وحياة علي بن الحسين قائمة على الدعاء بينما كانت حياة الباقر قائمة على الحديث والفقه[٢٧].

أما على مستوى الدراسة الشاملة الكلية لحياة الائمة :يرى السيد الشهيد ان بإمكاننا ان نخرج بنتائج ازخر من مجموع النتائج التي تتمخض عن الدراسة التجزيئية لاننا سوف نكتشف الترابط في اعمالهم[٢٨].

وبين السيد الشهيد الدور المشترك للائمة عليهم السلام من خلال الموقف العام الذي وقفوه في خضم الأحداث والمشاكل التي اكتنفت الرسالة بعد انحراف التجربة واقصائهم عن مركزهم القيادي في زعامتها[٢٩].

لقد لفت السيد الصدر النظر الى تصورٍ شائعٍ لدى كثير من الناس الذين اعتادوا ان يقيموا الائمة بوصفهم اناسا مظلومين فقط. قد اقصوا عن مركز القيادة، واقرت الامة هذا الاقصاء... فهؤلاء الناس يعتقدون ان ادوار الأئمة في حياتهم كانت ادوراً سلبية على الأغلب، نتيجة لاقصائهم عن مجال الحكم.

وقد احسن السيد الشهيد ادراك هذا الامر الذي جعل كثيرا من الكتاب الاولين والمتاخرين ان يصفوا بعضا من الائمة بهذا الوصف، فقد وصف الامام زين العابدين عليه السلام بانه قد ترك المدينة وترك الناس اكثر من اربعين عاما[٣٠].

ويعد السيد الشهيد هذا التفكير خاطئاً من الناحية العملية، وانه يحبب الى الإنسان الانكماش والسلبية والابتعاد عن مشاكل الأمة ومجالات قيادتها[٣١].

لذا وجه السيد الشهيد قدس سره الى دراسة حياة الائمة على اساس نظرة كلية

تبين ايجابياتهم الرسالية على طول الخط. ودورهم المشترك الفعال في حفظ الرسالة وحمايتها.

فعلى الرغم من التآمر على اقصائهم عن مجال الحكم كان الائمة، يتحملون باستمرار مسؤوليتهم في الحفاظ على الرسالة وعلى التجربة الإسلامية وتحصينها من التردي إلى الهاوية، هاوية الانحراف والانسلاخ من مبادئها وقيمها انسلاخاً تاماً[٣٢].

واحسن التجارب في ذلك ما قدمه الامام زين العابدين الى الامة حينما أوجد ظاهرة الدعاء التي تحمل بين جنباتها جوانب سياسية، وجهادية، واجتماعية، واخلاقية، فضلاً عن جوانبها العقائدية والمعرفية والعبادية، فكانت ذات اهداف تغييرية شاملة[٣٣].

من هنا يتضح ان دور الائمة عليهم السلام هو دور الحفاظ على المقياس العقائدي والرسالي في المجتمع الإسلامي والحرص على ان لايهبط الى درجة تشكل خطرا ماحقا وهذا يعني ممارستهم جميعا دورا ايجابيا فعالا في حماية العقيدة. تمثل هذا الدور الايجابي في ايقاف الحاكم عن المزيد من الانحراف[٣٤] كما عبر الإمام علي عليه السلام حين صعد المنبر عمر بن الخطاب وتساءل عن رد الفعل لوصرف الناس عما يعرفون الى ما ينكرون. ورد عليه الإمام بكل وضوح وصراحة: اذن لقومناك بسيوفنا[٣٥].

وكان دور الائمة كبيرا في مجابهتهم المشاكل التي تهدد كرامة الامة الإسلامية، وعجز الزعامة المنحرفة عن حلها، كما في المشكلة التي احدثها كتاب ملك الروم الى عبد الملك بشأن النقد. وكان الامام الباقر عليه السلام في مستوى الرد على هذا التحدي فخطط للاستقلال النقدي [٣٦]. زمن أبيه الامام السجاد.

ومن قراءة الاحداث التاريخية التي رافقت جميع أئمة أهل البيت عليهم السلام

توصل السيد الشهيد قدس سره الى تمييز خطين رئيسيين لعمل الأئمة عليهم السلام هما:

١- خط تحصين الامة ضد الانهيار بعد سقوط التجربة واعطائها من المقومات القدر الكافي لكي تبقى واقفة على قدميها بقدم راسخة وبروح مجاهدة وبإيمان ثابت.

٢- خط محاولة تسلم زمام التجربة وزمام الدولة ومحو اثار الانحراف وارجاع القيادة الى موضعها الطبيعي لتكتمل عناصر التربية ولتلاحم الامة والمجتمع مع الدولة والقيادة الرشيدة [٣٧].

منهج الشهيد الصدر في كتابه نشأة الشيعة والتشيع:

أما ما قدمه السيد الشهيد في كتابه (نشأة الشيعة و التشيع) والذي سمي بعدة مسميات اخرى منها (التشيع و الإسلام) كان مقدمة لكتاب الدكتور عبد الله فياض (تاريخ الشيعة الإمامية واسلافهم) طبع فيما بعد مستقلا عن الكتاب[٣٨].

يناقش السيد الشهيد في هذا الكتاب أمورا شديدة التعقيد يصعب على غير المتمرس في الحقل المعرفي ان يناقشها إلا إذا كان متسلحا بالحجة القاطعة و البرهان الصحيح.

فقد تكلم عن موقفين جعل احدهما سلبي تجاه مستقبل الدعوة مَثَلَهُ بالطريق الأول: أن يقف النبي صلى الله عليه وآله من مستقبل الدعوة موقفا سلبيا، ويكتف بممارسة دوره في حياة الدعوة وتوجيهها فترة حياته، ويتركها في مستقبلها للظروف والصدف.

وهذه السلبية لا يمكن افتراضها في النبي صلى الله عليه وآله لأن النبي صلى الله عليه وآله كان همه الأول أن يغير طبيعة الأشياء تغييرا انقلابيا يستهدف بناء الأمة واستئصال كل جذور

الجاهلية منها[٣٩].

ويعطي السيد الصدر لهذا المعنى مثالاً واقعياً تاريخياً يستقيه من بعض الروايات التي تقول ا ن أبا بكر حين عوتب على التسرع في قبول السلطة وتحمل المسؤولية أجاب: إن رسول الله ﷺ قبض والناس حديثوا عهد بالجاهلية، فخشيت ان يفتنوا، وان اصحابي حملونيها[٤٠].

فيستنتج احتجاجاً بارعاً على مَنْ يؤمن بذلك : انه كان كل ذلك صحيحا. فمن البديهي إذن ان يكون رائد الدعوة ونبيها أكثر شعورا بخطر المسؤولية واكبر إدراكا وأعمق فهما لطبيعة الموقف...[٤١].

أما الموقف الثاني: هو الموقف الايجابي المتمثل في نظام الشورى حسب الدعوى التاريخية.

يرد السيد الشهيد على هذه المقولة بقوله: ان طبيعة الاشياء و الوضع العام الثابت عن الرسول والدعوة والدعاة يرفض هذه الفرضية وينفي ان يكون النبي ﷺ قد انتهج هذا الطريق واتجه الى ربط قيادة الدعوة بعده مباشرة بالامة متمثلة في جيلها الطليعي من المهاجرين والانصار.

ويذهب الى تاكيد قوله: ان النبي ﷺ لم يمارس عملية التوعية على نظام الشورى وتفاصيله التشريعية او مفاهيمه الفكرية[٤٢]. ولذلك نجد ان ابا بكر حينما اشتد به المرض عهد الى عمر بن الخطاب فأمر عثمان ان يكتب عهده[٤٣].

وفرض عمر هو الآخر رأيه على المسلمين عندما جعل الأمر في نطاق ستة أشخاص، وأوكل أمر التعيين إلى الستة أنفسهم دون سائر المسلمين[٤٤].

فلو كانت الشورى كما أراد أصحابها مطروحة من قبل النبي ﷺ بالحجم المطلوب لما اختص الاستماع إلى نصوصها بأصحاب تلك الدوافع بل

لأسمعها الناس ولانعكست بصورة طبيعية عن طريق الاعتياديين من الصحابة، كما انعكست فعلا النصوص النبوية على فضل الإمام علي ووصايته عن طريق الصحابة أنفسهم(٤٥).

وتوصله هذه الفروض التي ناقشها وفندها الى ان الطريق الوحيد الذي بقي منسجما مع طبيعة الأشياء ومعقولا على ضوء ظروف الدعوة والدعاة وسلوك النبي صلى الله عليه وآله هو أن يقف النبي صلى الله عليه وآله وقد اثبتت صحة هذا الاحتمال ليس وفقاً لمنهج علم الكلام وادواته العقلية والرياضية فحسب، بل عالج الصدر قضية الامامة من جميع جوانبها برؤية تحليلية شاملة، حسب طبيعة الظروف ووقائع التاريخ وما يقتضيه النص والعقل السليم في هذا الموضوع الخلافي الاول بين المسلمين، وقد مثل بحث السيد الصدر في الامامة رغم ايجازه، خلاصة الاسس والمرتكزات لمنهجه العلمي في حقل التاريخ(٤٦). من مستقبل الدعوة بعد وفاته موقفا ايجابيا فيختار بأمر الله سبحانه وتعالى شخصا يرشحه عمق وجوده في كيان الدعوة. فيعده إعدادا رساليا وقياديا خاصا لتتمثل به المرجعية الفكرية والزعامة السياسية للتجربة(٤٧).

ثم يختم السيد الشهيد كتابه بفصل اسماه (كيف وجد الشيعة)؟ ويؤكد فيه ان مولدهم كان بعد وفاة الرسول مباشرة، ممثلين في المسلمين الذين خضعوا عمليا لاطروحة زعامة الإمام علي عليه السلام وقيادته التي فرض النبي الابتداء بتنفيذها من حين وفاته مباشرة.

وقد تجسد الاتجاه الشيعي منذ اللحظة الأولى في إنكار، ما اتجهت إليه السقيفة من تجميد لأطروحة زعامة الإمام علي عليه السلام وإسناد السلطة إلى غيره(٤٨).

الإمام الصدر والثورة الحسينية:

وفي تاريخ الثورة الحسينية كانت بصمات السيد الشهيد واضحة عالج فيها بكل موضوعية وجراءة الانحراف الحاصل في الامة بألوانه المختلفة حينما شكت الأمة باستخلاف الإمام علي عليه السلام للنبي صلى الله عليه وآله واستفحل هذا الشك ليكون حالة مرضية في عهد الحسن عليه السلام. تحولت في زمن الامام الحسين عليه السلام الى حالة انعدام الارادة مع وضوح الطريق. فأن الامة بنظر السيد الشهيد قدس سره: فقدت ارادتها واستطاع الذين اغتصبوها ان يسرقوا شخصيتها. فوقفت مكتوفة الايدي امام بيعة يزيد بن معاويةبل وصل عقلاؤها نفس المستوى من الهزيمة فكانوا بخوفون الحسين عليه السلام بالموت والهلاك[٤٩].اذا ما ثار على يزيد.

وقد ميز السيد الصدر بين اتجاهين مختلفين في فهم اهداف الثورة الحسينية عند بعض الكتاب الإسلاميين فمنهم من رأى ان هدف الثورة هو الشهادة فقط دون اقامة دولة إسلامية، واستدلوا على ذلك بأنعدام عناصر الانتصار العسكري، وحشدوا النصوص التي صدرت عن الامام الحسين نفسه التي بّين فيها حتمية المصير الذي ينتظره، ومن هذة الاقوال: (...لا ارى الموت الا شهادة والحياة مع الظالمين الابرما)[٥٠].

(...خط الموت على ولد ادم كخط القلادة على جيد الفتاة)[٥١].

وتمثل اصحاب الاتجاه الثاني في دعوى ان الامام الحسين خرج بدافع اقامة الحكم الإسلامي، لتوفير الدلائل و القرائن على ما قام به الحسين من ارسال الكتب والسفراء الى اهلالبصرة الكوفة وعلى حد سواء.

وقد رأى السيد الصدر في كلا الاتجاهين افراطا وتفريطا. لكون الاتجاه الاول اعتمد على العامل الغيبي الذي يلغي كثيرا من مفردات عظمة الثورة

الحسينية، ولذلك اضطر انصار الاتجاه الثاني ـ كرد فعل ـ الى اتخاذ موقف تفسيري مناقض تماما للاتجاه الاول [٥٢].

ويكمل السيد الصدر كعادته الحلقة المفقودة في الرؤية العلمية فيضيف للاتجاه الاول الغيبي عنصر الهدف في عملية الاستشهاد، لئلا تظهر بمظهر الانتحار.

ويُضيف الى الاتجاه الثاني امكانية تعقل المصلحة في الاستشهاد الذي رفضه انصار هذا الاتجاه. وذلك في احداث الهزة الوجدانية في نفوس المسلمين واثارة المشاعر الثورية فيهم بعد ان ماعت الامة في عهد معاوية بالافكار الانهزامية التي افقدتها ارادتها وثقتها وكرامتها بنفسها ورضيت بالكسروية والهرقلية بديلا عن نظام الخلافة المتبع في الإسلام[٥٣][٥٤].

وختم السيد الصدر دراسته للتخطيط الحسيني في سبيل تغيير اخلاقية الهزيمة، بنتيجة يحمل فيها القارئ الى التساؤل فيقول: أي قدر نواجهه في حياتنا ونكلف أنفسنا بالقيام به في سبيل الإسلام؟ ويجيب الصدر على هذا التساؤل مخاطبا المسلم أينما وجد: ان الإسلام اليوم يتطلب منك قدرا قليلا من التضحية بقوتك، براحتك، وبمصالحك الشخصية، برغابتك.بشهواتك، في سبيل تعبئة كل طاقاتك وامكانياتك واوقاتك لاجل الرسالة. ؟ ثم يعرج بقوله اين هذه التضحية من التضحية العظيمة التي قام بها الحسين عليه السلام... ليكون دم الحسين عليه السلام حيا على مر التاريخ[٥٥].

الخاتمة:

هذه الإلمامة المتواضعة التي، طوفت بالباحث في رياض الفكر التاريخي للسيد الصدر توصل الى جملة من الاستنتاجات منها:

- تميزت مدرسة الشهيد الصدر بالوعي التاريخي والذوق السليم. الذي لا يصدر حكما على القضايا التاريخية الا بعد استيفاء دراسة الظروف

والأجواء البيئية التي تُيسر للباحث أو المؤرخ استخلاص النتائج بموضوعية وحيادية.

- أولت مدرسة الصدر قضايا الجدل التاريخي اهتماماً بالغاً وجعلت له مكانا متميزاً في عقل المؤرخ و المفكر على السواء، وفي هذا المجال تميز الشهيد الصدر بأسلوبه الهادئ في الطرح بعيدا عن التشنج وعن الانتقائية في طرحه لقضايا التاريخ وتفسير احداثه على وفق النزعة الموضوعية الشاملة.

- كان للسيد الصدر مواقف جريئة في اعطاء رأيه الذي يحدد فيه النتيجة الصريحة دون المجاملة في ارضاء هذا الطرف او ذاك، واعتمد منهج البحث العلمي الذي يقوم على التحليل والاستنتاج.

- لم يستخدم السيد الشهيد اي عبارات غير لائقة قد تحسب عليه في متون بحثه. فتعامل مع الاسماء الواردة بمستوى المسؤولية فكان بحق مؤرخا. امينا جرد نفسه من عدم الانحياز إلى أي جهة مهما كانت المسميات.

- افاد السيد الشهيد الصدر قدس سره من بعض الحوادث الفقهية وخاصة باب الارث حيث استطاع ان يعزز بها الجانب التاريخي عن طرحه لمشكلة فدك المتنازع عليها وعرض القرآن والسنة الصحيحة.

- تعامل مع قضية فدك بأروع ما كتب عنها لأنه درس قضية محرجة وناقش السيد الشهيد حيثياتها على وفق المنهج العلمي واستطاع تحديد دائرة المسؤولية عما حدث. وكان موفقا للغاية في معالجته للقضية.

- وفق السيد الشهيد في دراسة حياة الأئمة عليهم السلام إلى اختيار المنهج السليم المعتمد على النظرة الكلية لحياتهم، والتي درست كفاحهم بوصفه بوحدة متكاملة بَيَّن من خلالها هدفهم في الحفاظ على كيان الدولة

الإسلامية رغم الانحراف الحاصل في مرافقها، غير متناسي دراسة حياة الأئمة بالطريقة التجزيئية المعروفة عند الكتاب و المؤلفين.

هوامش البحث

(١) ولد السيد محمد باقر السيد حيدر الصدر في مدينة الكاظمية من ضواحي العاصمة العراقية بغداد في يوم الاحد ٢٥ شهر ذي القعدة عام ١٣٥٣هـ /٢٨/شباط ١٩٣٥، ونشأ في رعاية خاله المرجع الشيخ محمد رضا آل ياسين بعد وفاة والده المبكرة، انتقل في سنة ١٣٦٥هـ / الى النجف لمواصلة الدراسة في حوزة النجف الاشرف التي اكمل فيها مرحلة السطوح في ظرف زمني قصير لا يزيد على اربعة اعوام، عُرف بقدرته الخلاقة على توليد الافكار الجديدة، وتوفره على معارف غريبة عن النجف، والانجاز العلمي المبكر، استشهد بعد اعتقاله من قبل سلطة البعثيين في العراق سنة ١٤٠٠هـ /١٩٨٠م.
لمزيد ينظر: محمد الحسيني، الامام الشهيد محمد باقر، ص ٤٨ وما بعد، الحسيني، محمد باقر الصدر حياة حافلة، فكر خلاق، ص٣٣-٣٤،ص٤٧، ص٥٥، ص٦٤،ص٢٢٩-٢٣٠، النعماني، الشهيد الصدر سنوات المحنة، ص٣٠٠-٣١٧.

(٢)محمد باقر الصدر: الحسين يكتب قصته الاخيرة، ص ٣٥.

(٣) حسن الحكيم، اصالة المعرفة التاريخية عند الشهيد،ص٧٩.

(٤) حسين بركة الشامي، منهج البحث التاريخي عند الامام الشهيد،ص٣١٠.

(٥) احمد شلبي: التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية، ٢٩/١.

(٦) محمد باقر الصدر:فدك في التاريخ، ص ٣٥.

(٧) المصدر نفسه، ص٣٦.

(٨) المصدر نفسه، ص ٣٦.

(٩) محمد باقر الصدر:فدك في التاريخ، المقدمة، ص ٣٦.

(١٠) محمد باقر الصدر، فدك،ص٤٣.

(١١) العقاد: فاطمة الزهراء والفاطميون، ص ٦٠.

(١٢) الصدر، فدك في التاريخ، ص٢٤.

(١٣) المصدر نفسه.
(١٤) المصدر نفسه،ص٦٧، ٧٥.
(١٥) المصدر نفسه.
(١٦) المصدر نفسه،ص٥٦.
(١٧) ابن ابي الحديد، شرح النهج،٢١٨/١٦.
(١٨) الصدر: فدك في التاريخ، ص ١٤٤.
(١٩) الرازي: التفسير الكبير: ٢١٠/٩.
(٢٠) محمد الحسيني: محمد باقر الصدر، حياة حافلة، فكر خلاق، ص ٥٩٦.
(٢١) الصالحي، مقدمة تحقيق كتاب اهل البيت تنوع ادوار، ص١١-١٢، وتنظر ص٧٧.
(٢٢) الشهيد الصدر:اهل البيت، ص ٧٨.
(٢٣) المصدر نفسه، ص ٦٠١ ؛ ينظر كتاب السنن التاريخية:السيد محمد باقر الصدر، محاضرات جمعت في كتاب.
(٢٤) انظر: الشيخ المفيد، ٥/٢-١٧٦ ؛المجلسي: بحار الانوار، ٤٤٩،٤٥،٤٦ ؛ المسعودي: اثبات الوصية، ١٣٢، ١٥٣.
(٢٥) الصدر: اهل البيت تنوع ادوار ووحدة هدف، ص٨٢.
(٢٦) المصدر نفسه.
(٢٧) السيد كاظم القزويني: الامام السجاد من المهد الى اللحد، ص ٣١ ؛اعلام الهداية: زين العابدين، ص١١٩.
(٢٨) الصدر: اهل البيت تنوع ادوار ووحدة هدف، ص٨٧.
(٢٩) المصدر نفسه، ص ٨٨.
(٣٠) الامام زين العابدين: ص ٢١٠.
(٣١) محمد باقر الصدر، اهل البيت تنوع ادوار،ص٨٨-٨٩.
(٣٢) الخوارزمي: المناقب، ٩٨ - ٩٩.
(٣٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ٦٨/٩.
(٣٤) الصدر: اهل البيت تنوع ادوار ووحدة هدف، ص ١٢٢.
(٣٥) ينظر: الدكتور عبد الله فياض، أصل الشيعة الإمامية وأسلافهم،ص٥.
(٣٦) التشيع والاسلام، ص ١٧.
(٣٧) ابن ابي الحديد، ٤٢/٢.
(٣٨) التشيع و الاسلام، ص ١٩.
(٣٩) المصدر نفسة، ص ٢٣.

(٤٠) الطبري: تاريخ الطبري، ٤٢٨/٣.
(٤١) الصدر: التشيع والاسلام، ص ٢٤.
(٤٢) المصدر نفسه، ص ٣٧.
(٤٣) الصدر: الشيعة والاسلام، ص ٤٣.
(٤٤) حسين بركة الشامي، منهج البحث التاريخي عند الامام الشهيد،ص٣١١.
(٤٥) الصدر، الشيعة والاسلام،ص ٢١٠.
(٤٦) بتصرف: الحسين يكتب قصته الاخيرة، ص ٥٧.
(٤٧) الطبري: تاريخ الطبري، ٤٣٢/٣.
(٤٨) المصدر نفسه، ٤٣٢/٣.
(٤٩) محمد الحسيني: محمد باقر الصدر، حياة حافلة وفكر خلاق، ص ٦٠٣.
(٥٠) الصدر، الحسين يكتب قصته الأخيرة، ص ٧٤.
(٥١) المصدر نفسه، ص ٢١٠.

قائمة المصادر والمراجع

- **احمد شلبي:**

١. التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية، القاهرة (د.ت).

- ابن ابي الحديد: عز الدين عبد الحميد المدائني (ت ٦٥٦ هـ):

٢. شرح نهج البلاغة، تح: محمد ابو الفضل ابراهيم، ج ط١، منشورات انوار الهدى، قم، ١٤٢٩ هـ.

- حسن عيسى الحكيم

٣. اصالة المعرفة التاريخية عند الشهيد السيد محمد باقر الصدر، ضمن كتاب محمد باقر الصدر المؤسس والمجدد، ط العارف، بيروت، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

- حسين بركة الشامي

٤. منهج البحث التاريخي عند الامام الشهيد السيد محمد باقر الصدر (فدك في التاريخ أنموذجا)، ضمن كتاب محمد باقر الصدر المؤسس والمجدد، ط العارف، بيروت، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

- الخوارزمي: موفق بن احمد الخطيب (ت ٥٦٨ هـ):

٥. المناقب: النجف (د. ت).

- الرازي: محمد بن عمر (ت ٦٠٦ هـ):

٦. التفسير الكبير، منشورات دار الكتب العالمية، طهران (د. ت).

- صائب عبد الحميد:

٧. فلسفة التاريخ في الفكر الاسلامي، ط١، دار الهادي للطباعة والنشر، ٢٠٠٧م.

- الصدر: محمد باقر(ﷺ):

٨. الحسين يكتب قصته الاخيرة، تقريرات السيد كاظم الحائري، تح: صادق جعفر الروازق، قم المقدسة، ٢٠٠٦م.

٩. فدك في التاريخ: تح: لجنة التحقيق التابعة للمؤتمر العالمي للامام الصدر، ط١، مطبعة شريعت، قم ١٤٢٥ق.

١٠. اهل البيت تنوع ادوار ووحدة هدف: تح: عبد الروازق العباسي، ط١، مؤسسة ام القرى للتحقيق والنشر، بيروت ٢٠٠٣م.

١١. التشيع وفنون الاسلام، ط١، مطبعة شريعت، قم ١٤٢٥ق.

- الصالحي: عبد الرزاق:

١٢. مقدمة تحقيق كتاب اهل البيت تنوع ادوار ووحدة هدف، ط بيروت، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

- الصدوق: محمد ابن علي (ت ٣٨١هـ)

١٣. اكمال الدين واتمام النعمة، ط١، قم المقدسة، (د.ت).

- الطبري: محمد ابن جرير (ت ٣١٠ هـ):

١٤. تاريخ الامم والملوك، دار التراث، بيروت، ١٩٦٧ م.

- العقاد: عباس محمود العقاد

١٥. فاطمة الزهراء والفاطميون، ط٢، منشورات دار الكتاب العربي، (د.ت).

- الفياض: عبد الله (الدكتور):

١٦. تاريخ الشيعة الامامية واسلافهم، مطبعة النعمان، النجف الاشرف، ١٩٧١ م.

- ابن كثير: عماد الدين ابو الفدا اسماعيل بن عمر القرشي (ت ٧٦٤هـ).

١٧. البداية والنهاية، دار احياء التراث العربي، ١٤١٢هـ / ١٩٩٩م.

- المجلسي: محمد باقر، (ت ١١١ هـ).

١٨. بحار الانوار، طهران، (د. ت).

- المجمع العالمي لاهل البيت:

١٩. زين العابدين عليه السلام، اعلام الهداية، ط٢، (د. ت).

- محمد الحسيني

٢٠. محمد باقر الصدر حياة حافلة وفكر خلاق، ط١، قم، مكتبة الصادق، ١٤٢٨م.

٢١. الامام الشهيد محمد باقر الصدر - دراسة في سيرته ومنهجه، ط بيروت،١٩٨٩م.

- ابي مخنف: لوط بن يحيى (١٥٠ هـ):

٢٢. مقتل الحسين، تح، حسن الغفاري، المطبعة العالمية، مكتبة المرعشي النجف، قم، ١٣٦٨هـ.

- المسعودي: علي بن الحسين (ت ٣٤٥ هـ).

٢٣. اثبات الوصية، النجف، ١٣٧٠ هـ.

- الشيخ المفيد: محمد بن النعمان (ت ٤١٣ هـ).

٢٤. الارشاد، مؤسسة اهل البيت لاحياء التراث، (د. ت).